

ما مدى نجاعة المغالطة في الإقناع؟

الدكتورة: سليمة محفوظي

جامعة محمد الشريف مساعديّة - سوق أهراس - الجزائر

تعدّ المغالطة من أبرز السبيل التي انتهجها السفسطائيون لحمل المستمعين على تبني دعواهم أو الظفر بقضية من القضايا التي دافعوا عنها، معولين في ذلك على سلطة اللغة والعرف وكلّ ما هو مشترك بين الجماعة. بغض النظر على صدق الأطروحة من عدمها وهو الأمر الذي دفع بأفلاطون ومن بعده أرسطو الى محاربة هذا التوجه في الحجج وذلك بمحاولة الكشف عن هشاشة طرحه وضيق أفقه ولفت انتباه الجمهور إلى قصوره عن تمييز الحقيقة من الزيف، بالإضافة الى انحراف هذه الطريقة عن مبادئ الخير والأخلاق السامية. وجاء هذا البحث ليميط اللثام على أنواع المغالطات التي يلجأ المحاج للظفر بقضيته ودحض أطروحة خصمه.

الكلمات المفتاحية: الحجج؛ أنواع المغالطات؛ السفسطة؛ الألاعيب القولية؛

الحيل الخطابية؛ أرسطو.

How effective is the error/fallacy in persuasion?

Abstract: Paralogism is considered among the most prominent means in the argumentative discourse. It was exercised by the Sophists to incite the listeners to adopt their claims or win an issue they defended, relying on the authority of the language and the custom and all that is common within the group, regardless of the validity of the thesis or not. This is what prompted Plato and later on Aristotle to fight this trend in argumentation by trying to detect its thesis fragility/frailty, horizon narrowness and drawing the public attention to its shortcomings in distinguishing the truth from the falsehood, in addition to the deviation of this method from the principles of the good and high ethics. This study is to unveil the types of fallacies that the arguer resorts to in order to justify his issue and refute the thesis of his opponent.

Keywords: Paralogism; argumentative discourse; language; Aristotle; types of fallacies.

ارتبط مفهوم السفسطة بالحركة السفسطائية وهي حركة فكرية واجتماعية نشأت

وترعرعت في اليونان القديمة خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ورفعت شعار "الإنسان مقياس

تاريخ تسليم البحث: 15 أكتوبر 2017.

تاريخ قبول البحث: 12 فبراير 2018.

ما مدى نجاعة المغالطة في الإقناع

كل شيء، ودافعت عن نسبية الحقيقة وارتباطها بالظروف المتغيرة، فانتهدت إلى التأكيد على أهمية اللجوء للحيل الخطابية والألاعيب القولية لتحقيق المصالح الشخصية¹.

لم يكتف السفسطائيون بممارسة السفسطة وحدهم، بل تمكنوا من إقناع صفوة المجتمع آنذاك بضرورة تلقي دروس في هذا المجال إن كانوا يرغبون في تحقيق مصالح اجتماعية وسياسية واقتصادية، فتمكنوا بفضل ذلك من جمع ثروات عظيمة، ومن أشهر السفسطائيين الذين برعوا في مجال القول نذكر كل من: "كوراكس" Corax و "تيسياس" Tisias و "جورجياس" Gorgias².

اهتم أرسطو بالمغالطة التي اعتمدها السفسطائيون في بناء خطابهم "بغية التّمويه وبعث الشك والريبة في أذهان المستمعين وقد كشف عن مغالطتهم اللغوية وهي ست: الغموض والاشتباه والترتيب المهم للكلمات والقسمة المهمة للكلمات والشكل الخاطئ وصورة التعبير المستخدم وهي تحدث الوهم في القول واللفظ"³ وهذه المغالطات اللغوية تقوم على ركوب الملتبس في الخطاب الذي يتحوّل إلى فتنة وإغراء... فمن المواضيع التي يعمد السفسطائي أحيانا إلى بناء حججه عليها موضع المصادرة على المطلوب pédition de principe واعتبرها أرسطو من أكبر الأخطاء في بناء القياس وهو خطأ يتمثل في أن يجعل القانس المطلوب نفسه مقدمة في قياس يراد فيه إنتاجه فهو ضرب من الدّور⁴

السفسطة اصطلاحا

عرّف معجم تحليل الخطاب ل"باتريك شارودو (Patrick charoud) ودومينيك مانغونو (Dominiek mangono) السفسطة Sophisme: الخطاب المخرج والكاذب والمتلاعب الذي يخدم مصالح صاحبه وأهوائه⁵ كما نجد في نفس اللغة مصطلح Paralogisme الذي تمّ استعماله من قبل فريق الترجمة الفرنسية مقابل المصطلح الانجليزي Falacy وهو مصطلح من أصل لاتيني Fallacia يعني: المغالطة، والمكر والخداع والحيلة. وهو يتكون من جزئين Para وتعني Faux-à coté و Logismos وتعني Calcul-raisonnement وهي تعني حجاجا خاطئا⁶

ميّز كريستان بلانتان بين مصطلح Sophisme ومصطلح Paralogisme حيث يرى أن Le Paralogisme يكون الخطأ فيه بحسن نية أما في Sophisme يكون فيه الخطأ متعمدا⁷.

نقرأ في لسان العرب لابن منظور: "المغالطة من غالطه مُغالطة ويقال المغلطة والأغلوطة: الكلام الذي يغلط فيه ويغالط به، ومنه قولهم: حدّته حديثا ليس بالأغاليط. والتغليط: أن تقول للرجل غلظت. والمغلطة والأغلوطة: ما يغالط به من المسائل، والجمع الأغاليط... والأغلوطات... ويقال مسألة غلوط إذا كان يغلط فيها"⁸ أمّا الجرجاني فيعرّفها في كتاب "التعريفات" بأنّها: " قياس فاسد، إمّا من جهة الصّورة أو من جهة المادة أما من جهة

الصورة ألا تكون على هيئة منتجة لاختلال شرط، بحسب الكيفية، أو الكمية أو الجهة كما إذا كان كبرى الشكل الأول جزئية، أو صغراه سالبة أو ممكنة، وأما من جهة المادة فبأن يكون المطلوب وبعض مقدماته شيئاً واحداً وهو المصادرة على المطلوب كقولنا: كل إنسان بشر، وكل بشر ضحك فكل إنسان ضحك [...] وقيل المغالطة: مركبة من مقدمات شبيهة بالحق، ولا يكون حقاً ويسمى سفسطة أو شبيهة بالمقدمات المشهورة وتسمى مشاغبة، وهي أيضاً: قول مؤلف من قضايا شبيهة بالقطيعة أو الظنية أو بالمشهورة.⁹

كما اهتم ابن رشد بمسألة المغالطات وتجلّى ذلك من خلال ترجمته لأثار أرسطو والتي احتوت كتاب المغالطة، حيث عرّف المغالطة على أنها "القياس الذي يلزم عنه نتيجة هي نقيض النتيجة التي وضعها المخاطب"¹⁰ مرجعاً ذلك إلى محدودية الألفاظ وتعدد المعاني.

أما الفارابي فقد أرجع "أسباب تمرير المغالطات بين المتحاورين إلى الجهل بالنظريتين اللتين وضعهما أرسطو سواء في القياس أو في الجدل بالإضافة إلى عدم القدرة على تحديد الأجزاء كالمقدمات والحدود والجهل وعدم تمييز القوى الأربع (الآلات الجدلية الأربعة: آلة الاقتضاب، آلة القدرة على تمييز الاشتراك، آلة القدرة على تمييز الفضول، آلة القدرة على إدراك التشابه)"¹¹

وقد حظيت هذه التقنية الخطابية باهتمام النقاد القدامى فمنهم من أجازها باعتبارها وسيلة لغوية يتوسل بها الخطيب أو الشاعر استمالة المتلقي ومنهم من رفضها لأنها صورة من صور الخداع والكذب فقد "أجمعت العلماء وذو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح حجته وبيّن عن حقه، واستنقاص من عجز عن إيضاح حجته، وقصر عن القيام لحجته"¹²

أنواع المغالطات

1- الالتباس في المعنى: إن التعدد الدلالي سمة من سمات ثراء اللغة العربية، وقد جاء في كتاب البيان والتبيين في باب البيان، قول الجاحظ: "و على قدر وضوح الدلالة و صواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله - عز وجل - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم"¹³ وبيّن عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أن: "الغرض ليس بنظم الكلم أن توالى ألفاظه في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل."¹⁴

أما ابن خلدون (ت808هـ) الذي أولى أهمية كبيرة للدرس اللغوي الدلالي بصورة مستقلة عن باقي العلوم الأخرى، فقد ورد عنه في مجال التعلّم: "وهو معرفة الألفاظ ودلالاتها

على المعاني الدّهنية... فلا بد أيها المتعلّم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك دلالة الكتابة المرصوفة على الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالها المعروفة في صناعة المنطق¹⁵ يمكن القول أن الدّراسات القديمة أولت المغالطات أهميّة كبيرة لما لها من التأثير في تمرير الأفكار وخاصة فيما يتعلق بالخطاب السّياسي أو الخطاب الدّيني لأنهما الأكثر تداولاً في ذلك الوقت.

استثمر الجاحظ الالتباس الدّلالي كلما أراد أن يخفي مقصده أو رأيه أو ليتبرأ من تبعات أقواله ومثال ذلك ما ورد في رسالة ذم أخلاق الكتاب: "وليس دعائي لك بطول البقاء طلباً للزيادة، لكن على جهة التّعبد والاستكانة"¹⁶ ربط طول العمر وتقدم الميلاد لدى الحيوان بالزيادة في شدة الأركان، وفي طول العمر، وصحة الأبدان، لتكون النتيجة أن الكاتب قديم الميلاد، وهو، بذلك ينتهي إلى فصيلة الحيوان، ويصير الرّهان على كفاية المتلقي التأويلية، لفهم المعنى المقصود، والدّعوة الصّريحة إلى التأويل "فالملفوظ الحجاجي محفوف بالغموض، لأنه يقوم على تعدّد الدّلالات والتّأويلات"¹⁷ مما يستدعي تعاون المتلقي للكشف عنها، ويكون الرّهان على كفاءته اللّسانية والثّقافية، والإيديولوجية حتى يرسو عند المعنى المقصود، لأن "معرفة الطّابع البلاغي لمفوض ما، يمر بالضرّورة عبر مصفاة الكفاءة الموسوعيّة"¹⁸ والجاحظ يعول كثيراً على قدرة المتلقي في الوصول إلى المعنى المقصود، بل يحثه على إمعان العقل لفك دلالات الألفاظ .

ومن صور الالتباس الدّلالي الذي ورد في رسالة ذكر مناقب التّرك ما قاله الجاحظ على لسان المقاتل البنوي "ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنا وتتحرك ما تحركنا، والدّنيا كلها معلقة بها وصائرة إلى معناها، فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع الدّنيا تُبَعُّ لها"¹⁹ حرص الجاحظ على استخدام عدّة مصطلحات "تسكن ما سكنا" و"تتحرك ما تحركنا" و"الدّنيا كلها معلقة بها" وذلك بغرض التّفخيم والتّهويل، فالحركة تحمل دلالة الحرب في حين يدل السّكون على السّلام والطمأنينة، وهذا يحيل على أن السّلم والحرب متعلقان بهذه الفئة من الجند، فالاستدلال الدّلالي في لفظتي السّكون والحركة خلق نوعاً من الغموض والالتباس لأنّ "قصور اللّغة عن الإحاطة بالمعاني أفرز مجالاً واسعاً لاستغلالها بطرق غير شرعيّة ذلك أن اللفظ الواحد قد يدل على أكثر من معنى فيستغل السفسطائي هذا القصور للعب على هذه الخاصيّة ليتنصل من بعض ما أدلى به أو يوهم أن المخاطب قد قصد أموراً معيّنة وذلك بالوجه الذي يفيد مقاصده"²⁰ فالتّعتميم اللّغوي يؤدي عادة إلى سوء الفهم، والتّشويش على فكر المتلقي، مما ينجم عنه الشّبهة وقصور الفصل في الأمور المطروحة للنقاش أو البحث.

2- المغالطة بالاستدلال:

كلّ الأدوات الإجرائية تنشغل بسؤال البلاغة الذي يبحث في الخطاب من منظور الأثر الذي يحدثه في المتلقي وكيفية تحقّقه، فتتخذ منارة إلهما تصوّب الأفكار، فالبلاغة تدمج في رؤيتها للخطاب أبعادا كثيرة، باعتباره نتاجا لتفاعلات المقام الذي يمثل تربته التي نشأ فيها، فتتعامل معه كيانا حيا ووحدة عضوية لا انفصال بين مكوناتها.

نقرأ في كتاب التعريفات للجرجاني ما يلي: "المصادرة على المطلوب هي التي تجعل النتيجة جزء القياس، أو يلزم النتيجة من جزء القياس كقولنا الإنسان بشر، وكلّ بشر ضحّاك، ينتج أنّ الإنسان ضحّاك، فالمقدمة فالكبرى في المثال والمطلوب شيء واحد إذ البشر والإنسان مترادفان وهو اتحاد المفهوم فالمقدمة الكبرى والنتيجة شيئا واحدا".²¹ هذا يعني أنّ المغالط يستخدم مقدّمة تحوي ضمناً المطلوب إثباته ثمّ منها يستنتج ما يريد أن يثبته، فهي على هذا نوع من أنواع الاستدلال الدائري. وقد ورد هذا النوع من الاستدلال بصورة مكثفة في رسائل الجاحظ من ذلك ما قاله في معرض توحيدده لصفوف الجند: " وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني، وإذا كان الخراساني مولى، والمولى عربي، فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحدا"²² جاءت الحجّة التي أوردها الجاحظ على النحو التالي:

إذا كان البنوي خراساني من جهة المكان

إذا كان الخراساني مولى

إذا كان المولى عربيا

نخلص إلى أن الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحد.

يؤكد جون ستيوارت ميل أن "جميع صور الاستدلال الاستنباطي ترتكب مصادرة على المطلوب"²³ والعامل الوحيد "الذي يمكنه أن يحسم اللبس هو السياق التداولي الذي يرد فيه الكلام فإذا لم ينجح المحاور في إقناع الطرف الآخر بالقضية التي عرضها اعتبرت القضية مغالطة وإذا حدث الإقناع كانت الحجّة منطقية"²⁴

قدّم الجاحظ حجة تستند إلى ما قرّره العلاقات الاجتماعية والدينيّة السائدة في ذلك العصر لما تحمله من دلالات الوحدة والتآزر والوفاق بين الجند، وتلغي كل دواعي الشقاق والخصام، بعدما أوشك ذلك الخطيب أن يشعل فتيل النزاع فتمتد تلك الشرارة إلى السلطان الذي لن تقوم لدولته قائمة إلا بتماسك الجيش واجتماع كلمته، فالأمر متوقف على ما يؤمن به المتلقي، الذي توجه إليه الجاحظ بالخطاب، فإذا اعتقد بهذه الحجّة وأمن بوحدة الأجناس، فالحجّة لا تعتبر مغالطة، أما إذا كان المتلقي منكرا لها رافضا هذه النتيجة ولا يعتقد بصحتها، شاكاً في نوايا المخاطب فإنها عندئذ لا تؤدي وظيفة حجاجية وبهذا المعنى تعتبر مغالطة.

اعتمد الجاحظ استراتيجيات حجاجية مُميّزة، بحيث استعان بأسلوب المغالطة، فانطلق من مقدمة ليصل إلى نتيجة هي جزء من هذه المقدمة، فكأنها عود على بدء، بحيث انطلق من حيث أسلمه حجاجه، أي من أن التّركي رجل محارب، لا يصرفه عن القتال شيء، وأنه صانع سيفه وأب لفرسه، ثم طرح سؤالاً يتضمن معنى مضمرًا، وجوابًا واحدًا، هو الإثبات والتّقرير، فقال " ألا ترى أنه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم والحزم، والعزم والصبر، [...] و"لا بد من البصر بالخيال والسلاح، والخبرة بالرجال والبلاد، والعلم بالمكان والزمان والمكان، وما فيه صلاح المور كلها"²⁵، والنتيجة أن التّرك أنفع لمُلك الخليفة. وأثبت له في نصابه، وأقطع لأسباب المطمعة فيه. فهم لا زالوا على السّليقة والطّبع، ولم يفسد التّمدين أخلاقهم "لا يعرفون الملق ولا الخلابية، ولا النفاق، ولا السعاية، ولا التصنع ولا النميمة، ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء، ولا البغي على الخلفاء، ولا يعرفون البدع، ولا تفسدهم الأهواء..."²⁶ ومن كانت هذه أخلاقه كان أهلاً للثقة. فلا يخاف من غدره وخيانتته. فالترك بهذا، يمثلون لمعايير البلاغة، كما كشفت عنها مصنفات الجاحظ، وهي الانتصار للطبع ونبذ التّكلف، سواء في السّلوك، أو في التّدوق. فالجاحظ لم يتصدّ "للتكلف في وجهه الخطابي الذي خاضت فيه البلاغة فقط، بل تصدى له أيضًا في وجهه الخلقى والاجتماعي الذي جسده التّصوص السّردية"²⁶.

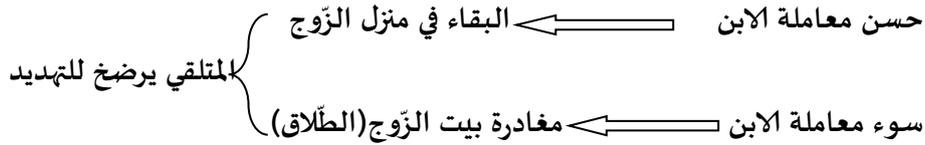
3- المغالطة بالاستدراج: أولت الخطابة أهمية كبرى للمستمع، حيث اعتبر تحريك انفعالاته وأهوائه، واستمالة عواطفه، الهدف التّهائي لكل خطاب بلاغي، فقد ركّز أرسطو في حديثه عن العواطف وقدرتها على الإقناع "فليس في مقدور الخطيب أن يثير في جمهوره ما يريد أن يثيره فيهم من عواطف إلا إذا كان عارفاً بأحوال النّفس البشريّة وما يسكنها من مشاعر مختلفة ونوازع شتى"²⁷ وقد اعتبر أرسطو أستاذاً مثالياً "لسوسيولوجيا الثقافة المسماة ثقافة الجمهور، فقد درس الانفعالات عن قصد"²⁸ واعتبرها "شذرات من اللّغة، ما على الخطيب إلا أن يحسن معرفتها"²⁹ وتبرز لدى المتكلم طريقتان للحجاج، الطريقتة الأولى وفيها يعتمد المتكلم إلى التّجريح والتّهديد والتّشكيك في قدرات الخصم العلميّة والمعرفيّة، أما الطريقتة الثّانية فيلجأ فيها المتكلم إلى الثّناء على المتلقي والإعلاء من شأنه، ووصفه بكلّ الأوصاف الحسنّة .

أ- العنف اللّفظي: ويمكن أن نمثّل لهذا الأسلوب بما ورد على لسان الشّاعر عمر بن

شأس في رسالة فخر السّودان³⁰

عِرا رَا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْتُ	أَرَادَتْ عِرَارَا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدُ
فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبْتُ لَهُ الْأَدَمُ	فَإِنْ كُنْتُ مَيِّ أَوْ تُجَيِّينَ شَيْمِي
تَزَوَّدَ خِمْسًا لَيْسَ فِي سَيْرِهِ أَتَمُّ	وَإِلَّا فَبَيْتِي مِثْلَ مَا بَانَ رَاكِبٌ

يحمل الخطاب الذي وجهه المتكلم (عمر بن شأس) لزوجته تهديدا صريحا، واتهمها بسوء معاملة ابنه الذي غيب الموت أمه، وطلبها بأن تحسن علاقتها به أو أن ترحل من منزله "إن الحجاج بالقوة هو حجاج يسعى صاحبه إلى حمل المخاطب إلى سلوك معين أو على عمل معين [...] يستند إلى التهديد ويستمد منه الحجة وعلى أساسه يسهل الاقتناع الذي يتخذ في نهاية الأمر شكل الاستسلام"³¹ هذه الحجّة تركّز على تغيير سلوك الخصم وفق ما يخدم مصلحة المتكلم، دون مراعاة لمشاعر المتلقي أو رغباته أو معتقداته "فهذه الحجّة تحمل في صميمها فكرة القوة تصنع الحق، وهي مغالطة لأن التهديد يعمل على مستوى دافعي مغاير لمستوى القناعة الفكرية"³² فالعنف أو التهديد قد يجبر المتلقي على تغيير سلوكه أو آرائه ولكن لوقت معين فقط ولفترة محدودة، لأن المتلقي لم يقتنع بضرورة التغيير إنما أُجبر على ذلك. ويمكن أن نوضح المسار الذي يتخذه هذا النوع من الحجج ويمكن أن نوضح المسار الذي يتخذه هذا النوع من الحجج



تعتبر اللغة قناة تبليغ ووصف وحجاج كما أنها أداة تعبير عن المكونات والرغبات المتعددة للفرد المدفوع بالرغبة في تحقيق السلطة والسيطرة في المجتمع"³³ ومن صور العنف اللفظي ما ورد على لسان الجاحظ في رسالته التي وجهها لمخاطبه الفتح بن خاقان: "وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاطا من الجند، وجماعة من أبناء الدعوة، وأن رجلا من عرض تلك الجماعة، ومن حاشية تلك الجلة ارتجل الكلام ارتجال مستبد، وتفرد به تفرد معجب، وأنه لم يستأمر زعماءهم، ولم يراقب خطباءهم، وأنه تعسف على المعاني وتهجم على الألفاظ"³⁴ فقد استصغر الجندي وقلل من شأنه بألفاظ يومئ بها إلى ذلك المعنى، انطلاقا من الموضوع الذي يتخذه في المجلس، من خلال لفظي "عرض" و"حاشية" اللتين يكتنن بهما من ليس من الوجهاء الذين يرجع إليهم في الرأي وتعتقد بهم المجالس، ليؤكد تلك السلبية بألفاظ صريحة، فهو مغتر بنفسه، معجب برأيه مما يجعل قوله بعيدا عن الإصابة إذ "تعسف المعاني وتهجم على الألفاظ" فتفتقد بذلك خطابته ما يحقق لها بلاغيتها وتأثيرها في المتلقي، فحالها يعكس صورة أخلاقية غير مقنعة، ومقاله يسمه التكلف كما يفهم من وصفه.

اعتمد الجاحظ هذه التقنية ليقّلل من شأن خصمه ويحوّل مجرى الخطاب لصالحه ولخدمة قضيته، فالمتكلم الذي لم يلتفت لذكر فئة من فئة الجند، على أهميتها، لا وزن له في

المجتمع وبالتالي لا مصداقية لكلامه، ولا يمكن أن يكون محل إجماع وعليه فكلامه مردود بالحجة والبرهان.

وقد يصعب على المتلقي الوقوف على آثار العنف اللفظي في الخطاب إلا إذا احتكم إلى خبايا اللغة وأسرار التراكيب ومن ذلك قوله: "وأُتيت - حفظك الله - على جميع ما ذكرت من ذلك، ووصفت ولخصت، وشرحت وأطنبت فيها وفرطت بالفهم، وتصفحتها بالعلم، وبحث بالحزم، ووعيت بالعزم، فوجدتها كلام امرئ قد أعجب برأيه وارتطم في هواه، وظن أنه قد نسج فيها كلاماً، وألف ألفاظاً ونسق له معاني على نحو مأخذه[...]. ومقصده أن لا يلفي له ناقضاً في دهره بعد أن أبرمها، ولا يجد فيها مناوياً في عصره بعد أن أحكمها. وأن حجته قد لزمتم جميع الأنام، ودحضت حجة قاطبة أهل الأديان[...]. وكان في موضع لا ينازعه فيه أحد، وقلما يجد من يخاصمه، ولا يلفي أبداً من يناضله، وصار فلجاً بحجته أوحدياً في لهجته، إذ كان محله محل الوحدة، والأنس بالخلوة، وكان مثله في ذلك مثل من تخلص إلى الحاكم وحده فلج بحجته[...]. وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحق ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد رده، ولا يمكنه إنكاره وجحده أنه تعسف المعاني وتهجم على الألفاظ."³⁵

قلل الجاحظ من قيمة الحجج التي أوردها الخصم واتهمه بالغرور والجهل وسوء تقدير الأمور، بالإضافة إلى تعسفه للمعاني وتهجمه على الألفاظ، فكيف يمكن لمن لا يحسن الكلام أن يحتج لفضائل الصمت، فالتهم التي وجهها الجاحظ لمحاورة هي من قبيل السيطرة على مجريات الحوار وتحوليلها لصالح الجاحظ. لكن ما نسجله هنا أن الجاحظ الذي انتقد خصمه واتهمه بالاستعلاء وبالغرور، لأنه ادعى أن حججه سليمة وصحيحة ولا يمكن الطعن في صدقها، هو الذي يؤكد بأنه سيقدم حججاً قاطعة وحاسمة يقول: "...وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، [...] بما لا يستطيع أحد رده، ولا يمكنه إنكاره وجحده"³⁶. يجيز لشخصه ما يمنعه على خصمه بمعنى أنه أخلّ بقاعدة من قواعد التناظر والمتمثلة في قاعدة العدل واحترام المناظر.

ب-العاطفة:

يلجأ المتكلم إلى استدراج المتلقي بشتى الطرق، ويحاول أن يؤثر في اختياراته وذلك بإثارة عواطفه مع التركيز على الجانب الأهم منها، ولهذا كانت المعرفة بنوازع المتلقي من العوامل المساعدة على إنجاح العملية الحجاجية، ويرى حازم القرطاجي أن هذا النوع من المغالطة ما به يثير المتكلم متلقيه بوصفه ومدحه والتقرب إليه لذا سمّاها استدراجات وأضاف شارحاً مدققاً "والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله أو باستمالة المخاطب واستلطافه

له بتزكيتته وتقريظه أو بإطبانته إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم وكلام خصمه غير مقبول³⁷ يبدو أن الجاحظ، تبني هذه السوسولوجيا أثناء مدحه عناصر التّركّ ودفاعه عنهم، ومحاولته تحسين صورتهم لدى الرّأي العام، بصفة عامة، وطلبا لوّد الخليفة بصفة خاصة، بعدما تعرضوا للخصومة منذ: "أصبحوا طبقة اجتماعية جديدة تنافس الطبقات الأخرى، وتشعرهم بالحقد والحسد، وأخذوا يحتلون مكانا ظاهرا يثير حولهم الضغينة، ويورث عليهم العداوة والبغضاء"³⁸ وبما أنهم أصبحوا يشكلون عصب قوة الدّولة، فقد رأى الجاحظ من الحكمة كسبهم، لذلك لم يجد بدا من الدّفاع عنهم، فكان من الضّروري بالنّسبة له، أن يقتنع هذا الأخير ويستجيب لخطابه، ومن أجل حصول ذلك، لجا إلى تحريك مشاعره، وإثارة انفعالاته، ليتواصل معه، عبر حمولة ثقافية واجتماعية مشتركة بينهما، ثم إنه اعتمد استراتيجية خاصة في إقناعه، إذ عمد إلى التّقرب منه عن طريق المدح والإطراء، فصار يشيد بخصاله، ويتغنى بمزاياه، وهو ما يمكن عدّه نوعا من المغالطات التي سعى الجاحظ، من خلالها، إلى إيقاع التّصديق لدى المتلقي وحمله على الإذعان لموقفه.

وقد خصص الجاحظ فقرة طويلة لوصف الأجواء الصّعبة التي تخيم على الطّريق أثناء الحملات الحربية التي يخوضها الجيش، وعلى الرغم من المعاناة إلا أن التّركي يصمد ويثبت فيقول "... وإن طالّت الدلجة، واشتد السير، وبعد المنزل، وانتصف النهار، واشتد التعب وشغل الناس الكلال، وصمت المتسايرون فلم ينطقوا، وقطعهم ما هم فيه عن التّشاغل بالحديث، وتفسخ كل شيء من شدة الحر، وجمد كل شيء من شدة البرد، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى أن تطوى له الأرض، وكلما رأى خيالا أو علما استبشربه، وظن أنه قد بلغ المنزل، وإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج، كأنه صبي محقون، يئن أنين المريض، ويستريح إلى التثاؤب، ويتداوى مما به بالتمطي والتضجع، وترى التّركي في تلك الحال، وقد سارضعف ما ساروا، وقد أتعب منكبيه كثرة النزح، يرى بقرب المنزل عيرا أو ظبيا، أو عرض له ثعلب أو أرنب، كيف يركض ركض مبتدئ مستأنف، حتى كأن الذي سار ذلك السير، وتعب ذلك التعب غيره"³⁹

اعتمد الجاحظ في هذه الفقرة على مكوّن السرد والوصف، لبناء صورة حجاجية صغرى، يدعمها قضية وردت قبلها مباشرة، مفادها أن "التّركي إذا سار في غير عناصر التّرك، فسار القوم عشرة أميال سار هو عشرين ميلا"⁴⁰.

إن قيمة هذه الفقرة، لا تعود برأيي إلى كونها حجة على فرضية فحسب، وإنما لأنها تكشف لنا عن دراية الجاحظ بطبيعة النّفس الإنسانية في قوتها وضعفها، وتطلعاتها. وكأننا به

ما مدى نجاعة المغالطة في الخطاب

محللاً نفسياً يتقصى جانب اللاوعي أو اللاشعور في الإنسان، فيكشف أسرارها وما ترفض البوح به، فضلاً عن جمالية الوصف، وإحساس مرهف بالمحيط، واستدراج ذكي للمتلقي. يروي الجاحظ على لسان يزيد ابن شجرة يقول: "إن يزيد ابن شجرة الرهاوي ذكر أنه بينما كان سائراً مع معاوية، ومعاوية يحدثه إذ صك وجهه يزيد حجر عائر فأدماه . وهو منصت. فقال له معاوية: لله أنت ! ما نزل بك؟ قال وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال هذا دم وجهك يسيل.

قال: إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري.. فما شعرت بشيء حتى نبهني أمير المؤمنين. فقال له معاوية. لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وحماة أهل صفين. فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده في عطائه ألف درهم⁴¹ نجح يزيد ابن شجرة في نيل إعجاب الخليفة الذي أمر له بمكافأة، لأنه فهم نفسية معاوية وأشبع غروره وأوهمه بأنه محل اهتمام وتقدير وأن حديثه لا يعلوه حديث، الأمر الذي مكّنه من السيطرة على عواطف الخليفة، فأرسطو يقول: "إن الانفعالات هي كلّ التغيرات التي تجعل الناس يغيرون رأيهم فيما يتعلق بأحكامهم وتكون مصحوبة باللذة والألم"⁴² تمكّن يزيد بفضل بصيرته الحادة من مغالطة معاوية وكسب رضاه باعتماده على مواطن ضعف الخليفة فمعرفة "البنية الفكرية للذي يوجّه إليه الخطاب هي خطوة مهمّة تمكّن من معرفة نوعية الوسائل التي يضمّمها فحوى الخطاب والتي ستحقق النتيجة المطلوبة"⁴³

4- المغالطة بالاستشهاد

يمثل الشاهد الجنس الثّاني من الحجج التي يعتبرها أرسطو ركيزة من ركائز الحجج ولا يخلو الخطاب الحجاجي من شواهد تدعم أطروحته، وتعدّ حجة السّلطة من الحجج التي تنتمي إلى صنف الحجج القائمة على بنية الواقع وهي "كثيرة الشّيع ثابتة الطّاقة الحجاجية"⁴⁴ لا سيّما في خطاب الأخلاق والعادات والتقاليد، وقد تناول أرسطو أنواع الشّاهد وذكر "الشّاهد التّاريخي والشّاهد الشّعري والشّاهد الاحتمالي، ويبيّن أن الشّاهد التّاريخي هو الذي يعتمد على الحقيقة ولذلك يعتبر الأكثر إثارة للتّصديق، أما الشّاهد المبتكر فيقوم على تخيل شبيه مماثل للحالة المطروحة للنقاش"⁴⁵- وهو ما يعرف بالتّمثيل- وقد خالف بيرلمان "Perlman" ما جاء به أرسطو واعتبر "الشّاهد قولاً أو تجربة أو معرفة والذي يوحد هذه المتغيّرات الثّلاث هو مصدرها الحقيقي"⁴⁶ فالاحتكام للواقع يساعد على استمالة المتلقي وإقناعه.

واعتبر الشّاهد في الخطابة العربية ركيزة أساسية يتوسل بها الخطيب إقناع المستمع، فقلما يخلو خطاب من تضمين آيات قرآنية أو مثل أو حكمة أو شعر باعتبارها "حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادفة النّاس عليها وتواترها"⁴⁷ بيد أن مثل هذا النّوع من

الحجاج قد "يتخذ أشكالا استعبادية ويقتل القدرة على الخلق والابتكار لدى صاحبه، مادام يجعله يقف عند مستوى ما يقوله القول المستشهد به دون أن يُسائله أو يعمل على تجاوزه" 48 يستعين الجاحظ بحجج جاهزة ليثبت أن الجندي التركي هو جزء لا يتجزأ من الجيش الإسلامي وأن الرابطة هي رابطة الولاء والوفاء لخليفة المسلمين يقول: " .. وكما جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهن لم يلدنهم ولا أرضعنهم، وجعل المرأة من جهة الرضاة أما، وجعل امرأة البعل أم ولد البعل من غيرها، وجعل الرب والداء وجعل العم أبا في كتاب الله.."⁴⁹ ففي توظيفه لهذه الشواهد التي يسلم بها المتلقي، إنما يريد أن يحث مخاطبه على المقارنة بين الحالات المتشابهة، فإذا كانت زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم هن أمهات المؤمنين والمؤمنات رغم أنهن لم تلدهن، لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾* وبؤا الإسلام المرأة المرضعة مرتبة الأم تقديرا لعملها ومكافأة لها على حسن صنيعها، ويحضرنا في هذا السياق السيدة حليلة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي غمرها بحبه لما لها من قيمة لديه، وقد روى أبو داود عن أبي الطفيل بن عامر بن وائلة الكناني قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور إذ أقبلت امرأة دنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلت: من هي ؟ فقالوا: هذه أمه التي أرضعته

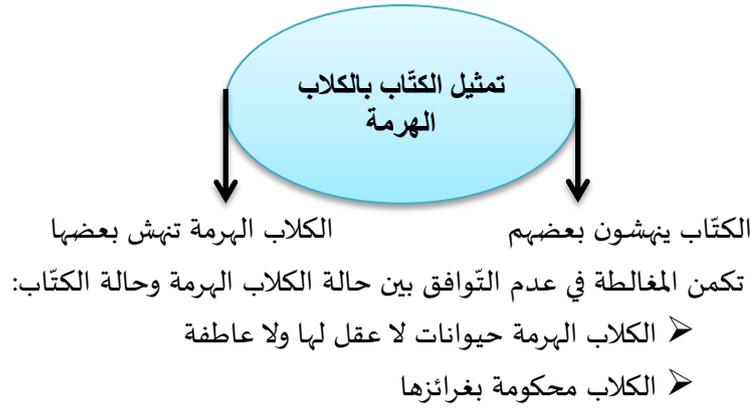
وغمرها الله بعنايته إذ عدها من المحارم لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾** فسلطة الشاهد القرآني حسمت المسألة لصالح الدعوى التي تبناها الجاحظ، فالقرآن اعتبر المرضعة أمًا رغم أنها ليست الوالدة، كما اعتبر زوجات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين والمؤمنات تعظيما لحقهن، فكذلك الأمر بالنسبة لفئات الجند الذين يخدمون الدولة الإسلامية وينشرون دين الله في كل بقاع المعمورة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "منا خير فارس في العرب: عكاشة بن محصن" فقال ضرار بن الأزور الأسدي: ذلك رجل منا يا رسول الله قال: بل هو منا بالحلف"⁵⁰

هذه الشواهد ما كانت لتلزم المتلقي بقبول دعوى الجاحظ لولا السلطة التي تتمتع بها وهي سلطة فوقية، تجبر المخاطب على الانصياع وتقبل الأطروحة المعروضة عليه.

عَدَّ المثل آلية من آليات الاستدلال، ولا يخلو خطاب يهدف إلى الإقناع من ضرب الأمثال، وقد خصص أرسطو للمثل حيزا في كتابه " الخطابة " فقسم المثل إلى قسمين. المثل التاريخي، والمثل المخترع أو المبتكر"⁵¹ ولعل ما ورد في حق الكتاب يوضح أثر المثل في تمرير المغالطة، نحو قوله: " لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يجرون في ذلك إلى غاية محمودة، ويأتون

ما مدى نجاعة المغالطة في الإقناع مجلة نصل الخطاب

منه آية مذكورة، إلا الكتاب، فإن أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجح رأيه إذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته (...) هم كالهرة من الكلاب في مرابضها، يمرّ بها أصناف الناس فلا تحرك، وإن مرّ بها كلب مثلها نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله⁵² لجأ الجاحظ إلى المثال كتقنية حجاجية ليبيّن سوء أخلاق الكتاب وعدم تعاطفهم فيما بينهم، وسوء بطانتهم، وقلة وفائهم وللمتمثيل لهذه الحجة نستعين بالخطاطة التالية:



في المقابل

➤ وهب الله الإنسان العقل وميّزه عن بقية مخلوقاته والكتاب من بني البشر

➤ لا يتعاطف الكتاب فيما بينهم لكن هذه الصفة لا تنزع عنهم صفة البشر

سعى الجاحظ إلى عقد مشابهة بين الكتاب والكلاب الهرمة ليوهم المستمع بدناءة خلق الكتاب في حين أنه ينطوي على مغالطة، وذلك بمحاولة الانتقام من الكتاب الذين سعوا إلى تشويه سمعته والحط من كتبه، والتطاول عليه في العديد من المناسبات.

واتكاء على ما سبق يمكن القول أن المغالطة تهدف إلى تحقيق مقاصدا معيّنة، وتتخذ من الخطاب قناة للوصول إلى أغراضها، ويعتمد التّضليل مسالك مختلفة كالالتباس الدلالي الذي يخلق صعوبة في الفهم أو التأويل، بالإضافة إلى المصادرة على المطلوب التي تضلل المتلقي كونها تعتمد على قياس خاطئ قد لا ينتبه إليه المتلقي، ثم إن المغالطة تعوّل كثيرا على عنصر الاستدراج الذي يعمل على إغراء المخاطب، وإغوائه بشتى الوسائل الممكنة، التي يوظفها المتكلم بغية التأثير على السّامع، وإذا كان الحجاج يهدف إلى الإقناع عن طريق حجج ظاهرة صحيحة فإن المغالطة تهدف بالأساس إلى كسب القضايا دون مراعاة لقواعد الحوار.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 54
- 2- المرجع نفسه، ص 55
- 3- ينظر: رشيد الراضي، السفسطات في المنطق المعاصرة، التوجه التداولي الجدلي: ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، 2010، ص 200
- 4- رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتب الجديدة، ط 1، 2010، ص 13
- 5- باتريك شارودو ودومنيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سينا ترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص 521-
- 6 محمد النويري، الأساليب المغالطية مدخلا في نقد الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، ص 406
7-Ruth Amossy, l'argumentation dans le discours, Amand colin, 2 édition, Belgique, 2006, p138
- 8- أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور، معجم لسان العرب، م 8، ص 363
- 9- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 476
- 10- ابن رشد محمد بن احمد بن محمد، كتاب السفسطة، ضمن كتاب تلخيص منطق أرسطو: تحقيق: جبرار جهامي، بيروت، المجلد 2، 1986، ص 669
- 11- حمو النقاري، من منطق مدرسة بوررويال في سوء النظر والتناظر ووجوه الغلط والتغليب فهما، ضمن كتاب التحاج طبيعته ومجالاته، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، ص 192
- 12- ناصر بن دخيل الله فالج السعيد، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425-1426هـ، ص 260
- 13- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان/ (د-ت) ج 1، ص 76
- 14- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45
- 15- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 504
- 16- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، ج 2، ص 192
- 17- عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطقاته، ص 317
- 18- المرجع نفسه، ص 316
- 19- الجاحظ، رسالة ذكر مناقب الترك، ج 1، ص 13
- 20- رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط 1، 2010، ص 252
- 21- الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 231
- 22- الجاحظ، رسالة ذكر مناقب الترك، ج 1، ص 16

- 23- عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007، ص61
- 24- فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، لبنان، 2000، ص256
- 25- الجاحظ، رسالة ذكر مناقب الترك، ج1، ص 27
- 26- المصدر نفسه، ص 39
- 27- حاتم عبيد، العواطف في نظريات الحجاج، ضمن مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد، 2011 ص 240
- 28- رولان بارت، البلاغة القديمة، ص 136
- 29- المرجع نفسه، ص137
- 30- الجاحظ، رسالة فخر السودان، ص222
- 31- محمد النويري، الأساليب المغالطية مدخلا في نقد الحجاج، ص 426
- 32- عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، ص 221
- 33- الجاحظ، رسالة ذكر مناقب الترك، ج1، ص 9
- 34- الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ص 230
- 35- المرجع نفسه، ص231
- 36- الجاحظ، رسائل الجاحظ، 207/4.
- 37- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص64
- 38- طه الحاجري: الجاحظ حياته وأثاره، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر، ص 294
- 39- الجاحظ، رسائل الجاحظ، 207/3.
- 40- حاتم عبيد، منزلة العواطف في نظريات الحجاج، مجلة عالم الفكر، ص 241
41. الجاحظ، رسالة التاج في أخلاق الملوك، ص 55-56
- 42- حاتم عبيد، منزلة العواطف في نظرية الحجاج، ص 242
- 43- المرجع نفسه، ص247
- 44- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 238
- 45- محمد الولي، البلاغة والحجاج، - <http://saidbengrad.free.fr/al/n5/8.htm>
- 46- علي محمد محمد الصلابي، فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، 1، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط4، 2002، ص178
- 47- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، ص90
- 48- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الوردني، ص 16
- 49- الجاحظ رسالة ذكر مناقب الترك، ص24
- *سورة الأحزاب، الآية 6
- **سورة النساء، الآية 23
- 50- الجاحظ، رسالة ذكر مناقب الترك، ص5
- 51- بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، السؤال البلاغي-الإنشاء والتأويل، ص248
- 52- الجاحظ، ذم أخلاق الكتاب، ص 265